

مِنْ مَعَالِمِ التَّيْسِيرِ فِي تَفْسِيرِ السَّلَفِ

د. عيسى بن ناصر الدريبي *

مُلخَصُ البَحْثِ

يُعنى هذا البحث ببيان معالم التيسير في تفسير السلف؛ وذلك لحاجة المسلمين عموماً إلى تفسير ميسر قريب الفهم، فقد كانت - ولا تزال - هناك محاولات لتيسير التفسير. وأرى أن تفسير السلف بعباراته المختصرة الواضحة في كثير منها يمكن الخروج منها بتفسير مختصر.

وقد قدّمت لذلك بتعريف بمصطلح السلف الذي أعنيه في هذا البحث. ثم تناولت حاجة المسلمين عموماً، والأعاجم على وجه خاص إلى تفسير ميسر، ثم بينت منطلقات أهمية تفسير السلف، وأبرزها:

تمكنهم من أدوات التفسير، وتوقف بعض أنواع علم التفسير على النقل عنهم، إضافة إلى كونهم أهل الإسلام الذين نزل بلسانهم القرآن، وكونهم عاشوا في القرون المفضلة.

ثم خلص البحث إلى ذكر بعض معالم التيسير في تفسير السلف. ومن أهم هذه المعالم: الوقوف عند التفسير النبوي، والاكتفاء بسبب النزول، وعدم التكلف في دلالات الكلمة والتفسير بالمعنى، والتفسير بالمثال، والتفسير بالنتيجة والثمره، والتفسير بالواقع، والتفسير بالوسائل التعليمية، والتفسير بظاهر اللفظ.

* الأستاذ المساعد بقسم الدراسات القرآنية في كلية المعلمين بالرياض.

ثم احتاج الأمر إلى تفسير كثير من غريب القرآن، وشرح آياته، ولا سيما فيما يتعلق بجانب الرواية وأسباب النزول، وتطور الأمر في الاهتمام بالتفسير كغيره من العلوم.

واعتنى العلماء بتفسير القرآن وبيانه للناس، وكان هناك عدة مناهج لتفسير القرآن، وكتبت التفاسير المتعددة المطوّلة والمختصرة، وكلها تهدف إلى بيان مراد الله واستنباط الأحكام والتشريعات. وقد قصد بعض المفسرين إلى تيسير التفسير بهدف تقريبه لعامة الناس، فألّفوا عدة مؤلفات مستقلة لخدمة هذا الهدف.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث لدراسة معالم تيسير التفسير من خلال تفسير السلف؛ لأن أقوال السلف في التفسير في مجملها تشرح الآيات باختصار يفهم منه مراد الآيات على نحوٍ ميسر.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- إن الغالب على المسلمين -حتى من يتكلم العربية- أنهم يخفى عليهم كثير من معاني القرآن؛ بسبب جهل معاني مفرداته وغريبه، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى التفسير؛ إذ التفسير هو النور الكاشف لفهم كلام الله، يقول إياس بن معاوية: «مَثَلُ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَهُ، كَمَثَلِ قَوْمٍ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ مَلِكِهِمْ لَيْلًا وَلَيْسَ عَنْدهُمْ مِصْبَاحٌ، فَتَدَاخَلْتَهُمْ رُوعَةٌ وَلَا يَدْرُونَ مَا فِي الْكِتَابِ، وَمِثْلُ الَّذِي يَعْرِفُ التَّفْسِيرَ كَمِثْلِ رَجُلٍ جَاءَهُ بِمِصْبَاحٍ فَقَرَأَ مَا فِي الْكِتَابِ»^(١).

٢- إن المسلمين الناطقين بغير العربية من أحوج الفئات إلى إخراج تفاسير مترجمة مختصرة واضحة توفقههم على فهم مراد الله من كتابه، من غير الدخول في قضايا البلاغة أو التفصيلات اللغوية. وطريق ذلك: إما تأليف تفاسير ميسرة باللغة العربية صالحة للترجمة إلى اللغات العالمية الأخرى، ويراعى هذا في نمط التأليف في العناية بالتعبيرات، والألفاظ الواضحة غير المحتملة لمعانٍ بلاغية قد لا يستطيع المترجم نقلها

(١) تفسير القرطبي (١/٢٦).

الانشقاق، لحضورهم له، وكل من جاء بعدهم اعتمد على قولهم في تفسيرها^(١).

ولذا جعل العلماء ما لا يقال فيه من جهة الرأي كأسباب النزول، والإخبار بالمغيبات - ما لم يكن من الإسرائيليات - مما له حكم الرفع، وهذا مما يبين مكانة تفسير الصحابة خصوصاً.

يقول الحافظ ابن حجر: «والحق أن ضابط ما يفسره الصحابي - رضي الله عنه - إن كان مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا منقولاً عن لسان العرب، فحكمه الرفع، وإلا فلا، كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، وقصص الأنبياء، وعن الأمور الآتية، كالملاحم والفتن، والبعث، وصفة الجنة والنار، والإخبار عن عمل يحصل به ثواب مخصوص، أو عقاب مخصوص فهذه الأشياء لا مجال للاجتهاد فيها فيحكم لها بالرفع».

ثم قال: «وأما إذا فسر آية تتعلق بحكم شرعي، فيحتمل أن يكون ذلك مستفاداً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن القواعد فلا يجوز برفعه، وكذا إذا فسر مفرداً، فهذا نقل عن اللسان خاصة، فلا يُجزم برفعه».

وهذا التحرير الذي حرَّره هو معتمد خلق كثير من كبار الأئمة، كصاحبي الصحيح، والإمام الشافعي، وأبي جعفر الطبري، وأبي جعفر الطحاوي، وأبي بكر بن مردويه في تفسيره المسند، والبيهقي، وابن عبد البر في آخرين، إلا أنه يستثنى من ذلك ما كان المفسر له من الصحابة - رضي الله عنهم - من عُرف بالنظر في الإسرائيليات... فمثل هذا لا يكون حكم ما يخبر به من الأمور التي قدمنا ذكرها الرفع، لقوة الاحتمال، والله أعلم^(٢).

ويمكن أن نلخص قيمة تفسير السلف - إضافة إلى ما سبق من منطلقات بما يلي:

١- كونهم في القرون المفضلة.

٢- أنهم شاهدوا تنزل الوحي على الوقائع والأسباب، وهذا خاص بالصحابة.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/١٠٤).

(٢) النكت (٢/٥٣١-٥٣٣).

المبحث الثاني: من معالم التيسير في تفسير السلف

هذا المبحث هو صلب هذا البحث، وقد قمت برصد هذه المعالم من خلال قراءة أقوال السلف في تفسير الإمام ابن جرير الطبري، والدر المنثور للسيوطي، وقد قرأت بعض جزء عم لاستخراج هذه المعالم، مع بعض الأمثلة التي تيسر لي رصدها في قراءات متفرقة.

وكان منهجي في هذه المعالم هو وضع عناوين لها، مع ذكر أمثلة لها، وركّزت على هذا المنهج في تناولي هذا المبحث اختصاراً، ووصولاً إلى هدف هذا البحث؛ ولذا لم أتناول هذه المعالم بالحديث عن تأصيلها في التفسير؛ لأن هذا شائع في كتب أصول التفسير، وعلوم القرآن، مثل: الحديث عن أسباب النزول، والتفسير النبوي، وغيرهما من حيث أهميتها ومكانتها في التفسير.

١- الوقوف عند التفسير النبوي:

لا يخفى أهمية التفسير النبوي ومكانته، وقد كان من مهمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيان القرآن كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ويُعنى التفسير النبوي بالآيات التي لا يظهر للصحابة فهمها على الوجه المطلوب، مثل كونه من أمور الغيب، أو لأن للكلمة مصطلحاً شرعياً غير المعروف في لغة العرب.

ولذا كان من منهج السلف في تفسير الآيات الاقتصار على التفسير النبوي غالباً إن وُرد؛ لوضوحه في بيان مراد الآية، حتى إنهم لا يضيفون إليه شيئاً من كلامهم، ولا غرو في ذلك فهو كلام المبلّغ عن رب العالمين.

التي تُفسَّر ألفاظ الآيات، من غير أن يتطرقوا بعد ذلك إلى تفسير الألفاظ، لما ورد في القصة من أحداث تدلُّ على شرح الآيات والألفاظ الواردة فيها.

ومثال ذلك: تفسير مقدمة سورة عبس من آية (١) إلى آية (١٠).

فقد نقل السيوطي^(١) عن السلف أقوالهم في سبب نزولها - وبخاصة قول ابن عباس - الذي فصلَّ أحداث القصة، ومنه يفهم معاني ألفاظ الآيات وتفسيرها، من غير أن يذكر عنهم بعد ذلك تفسير لكل كلمة أو لفظة من ألفاظ الآيات؛ لوضوح معانيها عبر سياق أحداث القصة.

عن ابن عباس قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾، قال: (بيننا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً، وجعل عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى، يقال له: عبدالله بن أم مكتوم، يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبدالله يستقرئ النبي - صلى الله عليه وسلم - آية من القرآن، وقال: يا رسول الله علِّمني مما علّمك الله، فأعرض عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُرِيكُ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى﴾، فلما نزل فيه أكرمه رسول الله وكلمه، وقال له: ما حاجتك، هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده قال له: هل لك حاجة في شيء، وذلك لما أنزل الله ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعَى * فَأَنَّ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ﴾).

٣- التفسير بالمعنى:

والمقصود به: هو تفسير الآية بمعناها العام من غير الدخول في تفاصيل تفسير

(١) الدر المنثور (١٥ / ٢٤١)، وانظر: تفسير الطبري (٢٤ / ١٠٣).

قال ابن عطية -معلقاً على أقوال السلف-: «وهذه كلها تفاسير بالمعنى؛ لأن السماء العالية يعترها هذا كله»^(١).

ويعدّ هذا المَعْلَمُ من أهم معالم التيسير في التفسير، وهو الغالب على تفسير السلف كما ذكر ابن القيم.

ولذا من المهم جدّاً -في قضية تيسير التفسير- جمع أقوال السلف المعتمدة على التفسير بالمعنى؛ للخروج بتفسير ميسر قريب الفهم للعامّة^(٢).

٤ - عدم التكلّف في دلالات الكلمة واشتقاقها:

يُعدّ هذا المَعْلَمُ من أبرز معالم تيسير السلف لتفسير القرآن؛ إذ إن الغالب على تفسيرهم الاختصار، والاقتصار على مجمل معنى الآية والكلمات القرآنية من غير كثير خوضٍ في التشقيقات، والتفصيلات لأصل الكلمة، واشتقاقها، ومعانيها في لغة العرب.

ومن سبل عدم التكلّف: الإجمال في التفسير.

وأمثلة هذا المعلم كثيرة، ومن ذلك:

عند بيان المراد بالأحرف المقطّعة -التي أطال المتأخرون الحديث فيها- قال أبو جعفر النحاس -في معرض نقله للأقوال فيها-: «وأبيّن هذه الأقوال قول مجاهد الأول: أنها فواتح للسور، وكذا قول من قال: هي تنبيه، وقول من قال هي: افتتاح الكلام ولم يشر حوا ذلك بأكثر من هذا؛ لأنه ليس من مذاهب الأوائل، وإنما يأتي الكلام عنهم مجملاً...»^(٣).

(١) المحرر الوجيز (٥٣/١٤).

(٢) وهو مشروع قد بدأت فيه بجزء عم -بحمد الله- وأسأل الله أن يوفقني لإخراج ذلك بشكل أجزاء حتى يكتمل بإذن الله.

(٣) معاني القرآن (١٧/١).

وما ذكره ابن أبي مليكة هنا هي أمثلة لهؤلاء المحجوبين عن ربهم.

ومن أمثلة ذلك: عند تفسير المراد بـ «الغيب» في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، قول زر^(١) بأن الغيب: هو القرآن، وقول عطاء^(٢): إنه القدر.

قال الراغب معلقاً على هذين القولين: «تمثيل لبعض ما هو غيب، وليس ذلك بخلاف بينهم، بل كل أشار إلى الغيب بمثال»^(٣).

٦ - التفسير بالنتيجة والثمره، والأثر، والهدف من الآية:

فقد يفسر السلف الآية بنتيجتها وما تؤول إليه، ويؤدي هذا التفسير معنى الآية بوضوح.

ومن أمثلة ذلك: عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤].

قال القاسم بن الوليد الهمداني: «إذا سيق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار»^(٤).

فهذا التفسير ليس لألفاظ الآية، بل هو للأثر الذي يعقب هذه الآية، إذ إنه دخول أهل الجنة للجنة، وأهل النار للنار لا يكون إلا بعد قيام الساعة.

وهذا المَعْلَمُ من معالم التيسير في تفسير السلف هو من أنواع تيسير السلف الشائع في تفسيرهم، قال الزركشي في صدد ذكره أنواع تفسير السلف وبيان أسرار تعدد أقوالهم: «وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤٢/١)، وذكره البغوي في تفسيره (٦٢/١) بلفظ: الوحي.

(٢) ذكره الراغب في مقدمة جامع التفاسير منسوباً إليه، ونسبه ابن كثير إلى زيد بن أسلم.

انظر: مقدمة جامع التفاسير ص (١٥٥)، وتفسير ابن كثير (١/١٦٧).

(٣) مقدمة جامع التفاسير، ص (١٥٥).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٩٧/٢٤)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٥٨/١٣)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٣٥/١٥) إلى ابن المنذر.

تُنْكِرُهُ وَتَبَيَّنَ خَطَأُ فَاعْلِيهِ.

٨- التفسير باستخدام الوسائل التعليمية:

وهذا المَعْلَم من المعالم المهمة في شرح الكلام وتوضيحه، وله دوره الكبير في تفسير المقصود بطريقة التمثيل باستخدام وسيلة من الوسائل التي تحاكي واقع الآية.

ومثال ذلك:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قام الإمام مجاهد بالتمثيل لمعنى هذه الآية باستخدام يده، لإيضاح معنى الران على القلوب قال الأعمش: «أرانا مجاهد بيده، قال: كانوا يَرُونَ القلب في مثل هذا -يعني الكفّ- فإذا أذنب العبد ذنباً ضَمَّ منه -وقال بأصبعه الخنصر هكذا- فإذا أذنب ضَمَّ أصبعاً أخرى، فإذا أذنب ضَمَّ أصبعاً أخرى، حتى ضَمَّ أصابعه كلها، ثم يطبع عليه بطابع. قال مجاهد: وكانوا يرون أن ذلك الرّين»^(١).

فمجاهد هنا استخدم وسيلة من وسائل التعليم وهي يده، فقد مثل بها كيفية أثر الذنوب في القلوب.

٩- التفسير بظاهر اللفظ:

من معالم اختيار السلف للأيسر في فهم معنى الآية تفسيرهم بظاهر اللفظ وهذه قاعدة هامة من قواعد التفسير عموماً، ومن قواعد الترجيح في التفسير، والتفسير الميسّر.

ومن أمثلة ذلك:

عند تفسيرهم لمعنى "مُحَلِّدُونَ" في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/٢٠١-٢٠٢).

ومن أمثلة تفسير الآية بسياقها البعديّ:

تفسير قتادة لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، فقد فسرها بما دلت عليه الآيات التي بعدها التي قسّمت الناس إلى أقسام ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، قال قتادة في تفسير الآية: «منازل الناس يوم القيامة»^(١).

١٢ - تفسير الآية ببيان حال من خالفها من الأمم السابقة:

قد يفسر الصحابي آية من كتاب الله ببيان حال من خالفها وما حصل له من عقوبة، ويكتفي بذلك لشرح الآية بالمعنى الإجمالي لها.

ومن أمثلة ذلك:

عند تفسير الآيات من سورة الرحمن، قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

قال ابن عباس: "يا معشر الموالي، إنكم قد وليتم أمرين، بهما هلك من كان قبلكم. اتقى الله رجل عند ميزانه، اتقى الله رجل عند مكياه، فإنما يعدله شيء يسير، ولا ينقصه ذلك، بل يزيده الله إن شاء الله"^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير وعبدالرزاق في تفسيرهما، وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر. انظر: تفسير الطبري (٢٢/٢٨٦)، وتفسير عبدالرزاق (٢/٢٦٩)، والدر المنثور (١٤/١٧٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/١٧٩).

كبير خلاف، فمرجع هذه الأقوال إلى قولين رئيسين، هما: ذهب ضوئها، وهذا هو مضمون قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والقول الثاني: رُمي بها، وهذا أحد مضمون قول أبي صالح، ونص قول الربيع بن خثيم، ولكلا القولين وجه صحيح، وذلك أنها إذا كُورَت ورمي بها ذهب ضوءها^(١).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/١٣١).

فهرس المراجع

- ١- استدرارات السلف في التفسير في القرون الثلاثة الأولى، دراسة نقدية مقارنة، نايف الزهراني، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى بمكة، نوقشت عام ١٤٢٧هـ.
- ٢- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط، ١٤٠٧هـ، المكتبة العصرية.
- ٣- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٤- التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، تحقيق: محمد شريف سكر، ط، الأولى ١٤٠٢هـ، دار إحياء العلوم.
- ٥- التحبير في علوم التفسير، السيوطي، تحقيق: عبدالقادر فريد، ط، ١٤٠٢هـ، دار العلوم.
- ٦- تفسير القرآن، لعبدالرزاق الصنعاني، تحقيق: د. مصطفى مسلم، ط، الأولى ١٤٠١هـ، مكتبة الرشد - الرياض.
- ٧- تفسير آيات أشكلت، لابن تيمية، تحقيق: عبدالعزيز الخليفة، ط، الأولى ١٤١٧هـ، مكتبة الرشد - الرياض.
- ٨- جامع البيان في تأويل آي القرآن، للطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط، الأولى، دار هجر - مصر.
- ٩- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، لابن عبدالبر، ط، دار الفكر.
- ١٠- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ط، الثالثة، ١٣٨٧هـ، دار الكتاب العربي - القاهرة.
- ١١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، مركز هجر - مصر.
- ١٢- سنن النسائي الكبرى، للإمام النسائي، تحقيق: حسن شلبي، ط، الأولى ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.

الرابعة ١٤١٧هـ، دار طيبة - الرياض.

٢٨- معاني القرآن، للنحاس، ط، الأولى ١٤١٠هـ، جامعة أم القرى.

٢٩- المفردات، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، ط، الثالثة ١٤١٨هـ، دار القلم - دمشق.

٣٠- مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، للدكتور مساعد الطيار، ط، الأولى ١٤٢٥هـ، دار المحدث - الرياض.

٣١- مقدمة جامع التفاسير، للراغب الأصفهاني، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، ط، الأولى ١٤٠٥هـ، دار الدعوة - الكويت.

٣٢- مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق: د. عدنان زرزور، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ، نشر دار القرآن الكريم.

١٨٥ ١١- تفسير الآية بسياقها القَبْلِيّ والبَعْدِيّ
١٨٦ ١٢- تفسير الآية ببيان حال من خالفها من الأمم السابقة
١٨٧ مسألة: اختلاف السلف في وجوه التفسير
١٨٩ الخاتمة
١٩٠ فهرس المراجع
١٩٣ فهرس الموضوعات